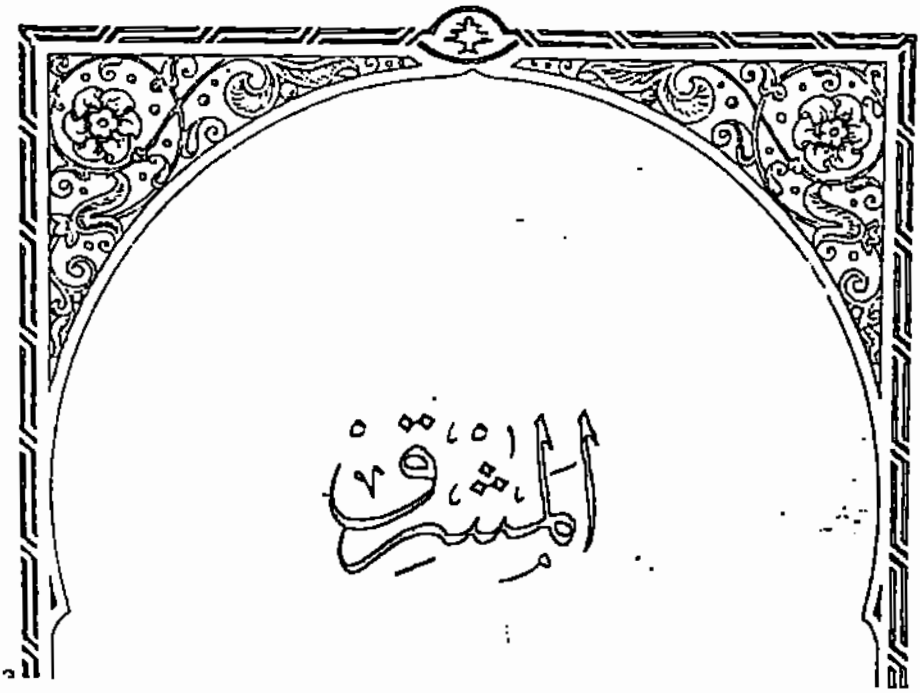

السنة الخامسة والاربعون

ت ١ – ك ١ ١٩٥١

تمهيد

من نزوح نشكو استعباد الانسان العصري وفقدانه روحيته ؟ الى من نزوح نشكو هذا التقهقر النفساني امام عالم مغو عدو الحرية الانسانية الحقة ؟ الى من نزوح نشكو هذا القلق العقلي امام عقم الانسان وإهماله لكل ما يتعلق بمصيره وسيره في الوجود ؟ اترى باستطاعته بعد ان يقرر ذلك المصير وان يعطيه وجهاً انسانياً ؟ اترى باستطاعته بعد ، دون كذب وتدجيل ، ان يتعرّف الى ذاته في عالم جرّده من كل جمال حين حسبه اداة ميكانيكية بسيطة ؟ ايستطيع بعد ان يسترجع تلك النظرة المتنبهة ، النافذة الى اسرار الكون لتجد سرّ خالق الكون ، وسرّ ذاتها الانسانية ؟

الى من يشكو الانسان وبيّن له عقم الخطة التي ينتهجها ، اذ انها لا تؤدي الا الى الخراب . لقد اصبح يعيش خارج ذاته ، سطحياً في افكاره ، لا يستطيع الاختلاء فترةً بقلبه لقرأ هناك متطلبات الضمير الصارمة ومتطلبات الطبيعة المتشوقة دائماً الى اكثر ، الى الفوق الذي لا يبرح يناديها ويريد منها اجابة . يظهر ان داخل الانسان يريعه فاذا به ، في اللهو العابر ، يحاول ان يتناسى جوعه وعطشه اللذين لا سبيل الى اخفائهما . كيف تلتجئ الى الانسان ضد الانسان ؟

عندما يزعم الانسان العصري انه يبني امة لا روحَ ولا شريعة لها الا شريعة الغاب حيث يصبح الانسان ذئباً لاخيه ، عندما يريد ان يحوّل الكون الى جنة ساحرة لكيلا يفتكر بتلك الجنة الاخرى التي لا يبرح يحنّ اليها رغماً منه ، يبرهن بذلك عن افلاسه وعن عقم فكرة جوفاء لا حياة فيها ، يبرهن بذلك عن رغبته الفاشلة في خنق تلك القوى الجبارة المتدافعة من اعماق ذاته صوب الينبوع الذي يروي وحده الظمأ . وفي هذه الحالة نراه بوجه انساني متوتر ، ولكنه من الداخل فريسة بين مخالب اليأس والعوز ، ليس له ، لانه لا يريد ، قوة ضمير مستقيم .

الى من نزوح نشكو الانسان ، بعد ان حاول فاخفق ان يخنق صوت ضميره ؟ نزوح الى الضمير ذاته الذي ما برح يرنّ ويتكلم لانه صوت الله ورجع همساته .

* * *

ان الازمة الدينية التي يتخبط فيها جيلنا تترك الانسان حيران متسائلاً . ماذا تكون نتيجتها عليه ؟ وهل يوسعه ان يكتسب منها عمقاً وخبرة ؟ هنا المعضلة كلها . هذا الاله الذي لا يعلم الانسان اين يضعه ، هذا الاله الذي اصبح يريد ان يتخلّص منه ، هذا الاله الذي كم اخبروه منذ العصور القديمة عن قدرته وابوّته ، دون ان يختبر شخصياً تلك القدرة ولا تلك الابوّة ، تُرى هذا الاله

بوسعه بعد ان يصعد بوجه التقدم حيث العقل يدّعي القدرة على الخلق نظير الله ، فتسكره الاكتشافات المتتابعة التي يقوم بها فينبذ القوة التي تعلوه ويزعم ان لا حاجة له بها من بعد ؟ وهل العالم هو بحاجة بعد الى الله بعد ان اصبح الانسان سيد العالم ؟ كان هذا الاله يروق للاجيال القديمة ، تلك القرون الوسطى المتخوّفة ، الجاهلة ، المتعبدة ، المتطلبة القوى الفائقة الطبيعة. اما العالم الحالي فانه يتحرر من الله لان الله ، على زعمه ، كثير الاغراض والحاجات . فعلى العالم لا ان يمحو اسم الله بل ان يهمله في زاوية حيث يهتم بذاته وبقدرته الفائقة ، ويمكنه ان يعجب بها الى الابد.

٠

ان عصرنا بمعتقداته التي هي ، ويا للاسف ، اختبار وجيع لليأس ، ليس الا نتيجة العصور التي سبقته ، خصوصاً منذ « ديكارت » مرّاً « بكنت » و« هيجل » و« ماركس » الذي اوجد « الانسان الاجتماعي » موضوع الجبرية الاقتصادية.

لقد توصل الانسان ، بمراحل متتابعة ، الى ان ينكر انه ابن الله ، دون ان يحسب حساباً لنتائج هذا النكران المريع . لقد اصبح عدوّاً لاخيه لانه رفض ان يكون ابناً لله ، وذلك بارادته لا بارادة الله الحليمة التي ما ابدعته الا عن حب وتظل كذلك . وهكذا ابتدأ الاستعباد . فالطبيعة التي تجسّدت وتغيّرت على يد الانسان الذي حلّ فيها محل الله اصبحت فريسة مطامعه ، واحياناً واسطة لانتقاماته وفتوحاته . اراد الانسان ان ينكر الما فحسر الارض.هنا قلقه وألمه ، ومع هذا فهو لا يعلم كم هي عميقة جراحه الداخلية ، ولا يدرك سبباً لهذا التفسّخ المريع الذي فرّق بين البشر وربّهم ، وقتل التعاون بين الناس : فاذا بالانسانية بعد هذا مختومة بطابع الموت.

٠

من الضرورة ان يكون القليلون الذين حفظوا شيئاً من معنى العدالة ملامي هذا العصر المظلم الذي نعيش فيه . ومن الضرورة ان توقظ العدالة الانسانية الانسان من نومه الثقيل المجرم قبل حلول يوم العدل الاخير المحتوم . يجب على كل الذين حفظوا بعد شيئاً من حرية العقل ، الذي هو ملجأ البشرية ، وآمنوا بقيمته الغلابة ، يجب عليهم ان يحاولوا إيقاظ العقل في عالم ميت وضمائر مظلمة ، وانها لمهمة عاجلة في كونٍ يصير الى الانهيار .

هذا لا يعني انه يجب على العالم ان يرجع الى عهد طفولة شاملة . فليدع الماضي وشأنه . انه لن يستطيع احياءه ولو اراد ذلك . انما عليه أن يُحيي كلَّ شيء بمسّ بهذا الروح الذي هو الشرط الوحيد لاستقامته وخلاصه .

الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي